العـــرب واليهود

للدكتور جواد علي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

وقد قرب هذا الدور على الأخص اليهود من العرب كثيراً . فإن دخول اليهود إلى أراض عربية بحتة والتجاءهم إليهم بعد طردهم عن أوطانهم ، جعلتهم يطلبون حماية العرب. ولأجل تقريب أنفسهم من القبائل العربية تظاهروا بروابط النسب والقربى ونشروا سلسلة الأنساب المعروفة عند العرب . وحاولوا ولا شك التأثير على العرب من النواحي الأخرى ، من النواحي الدينية ومن النواحي الثقافية ؛ إلا أنهم لم يتمكنوا من التأثير في العرب من الناحية الدينية على مايظهر ، فقد كان للعرب منذ القدم اعتزاز عظيم بآلهتهم وبأصنامهم ، ولم يكن من السهل عليهم ترك عبادة هذه الأصنام . في حين أن اليهود كانوا يعبدون إلهاً واحداً خلق هذا الكون بأجمعه ، إلا أنه إله شعب واحد هو إله إسرائيل فحسب . والظاهر أنهم لم يرغبوا في إشراك شعب آخر بعبادة هذا الرب الذي خصص نفسه بهذا الشعب .

أما من النواحي الأخرى فلم يكن هنالك مانع يحول بين ليهود وبين الشعوب الأخرى ، لأن في رابطة النسب خدمة عظيمة تساعد هذه الجاليات اليهودية كثيراً ؛ فنشروا لأساطير اليهودية بين العرب وعلموهم شيئاً كثيراً من أخبار لتوراة ، ولا سيما ما يخص الخلقة ومنشأ التكوين وقصص بني إسرائيل . يجعل جدول الأنساب الوارد في العهد القديم لعرب في نفس الحقل الذي دون فيه نسب اليهود . فابراهيم هو جد العرب الأكبر كما هو جد اليهود . وإذا كان إسماعيل هو الد العرب الإسماعيليين وهو ابن ابراهيم فإن اليهود وهم من سل ابراهيم على هذا هم أقرباء العرب وأبناء عمهم ومن شجرة احدة .

وتنتسب بعض القبائل العربية الشمالية إلى إبراهيم رأساً . إبراهيم على ما تقول التوراة لم يترك له خلفاً في البلاد العربية ، وإنما ذهب نسله إلى تلك البلاد ، وأن إبراهيم كان قد ذهب إلى فلسطين فانتشر أحفاده الذين تكاثروا وظهرت من ذرياتهم تلك الشعوب[١] .

وإسماعيل هو ابن إبراهيم من زوجته هاجر التي تعرف عليها أثناء هجرته إلى فاران (paran) في القسم الشمالي من شبه جزيرة طورسيناء . وقد ترك إسماعيل له اثني عشر ولداً تشعبت منهم القبائل الإسماعيلية التي انتشرت في شبه جزيرة طورسيناء وفي وادي الأردن[٢] . وعلى هذه النظرية العبرية يكون موطن القبائل الإسماعيلية هذه المنطقة التي نزل بها إبراهيم وإسماعيل وهي منطقة فلسطين وطورسيناء وشرق الأردن ومنها انحدرت القبائل الإسماعيلية إلى سائر الأنحاء كالحجاز .

ومن رأي المستشرق مرجليوث أن كلمة « اسماعيل » العربية التي وردت في القرآن الكريم عدة مرات ، هي ذات الكلمة التي وردت عند اليهود بصورة « يشماعيل » مبتدأة بحرف الملة . وإن هذا التشابه يجعلنا نعتقد بأن العرب قد أخذوها عن اليهود بطريق اليونانية أو السريانية ، لأن النصوص العربية القديمة التي وردت فيها كلمة « اسماعيل » كانت تكتبها « يشماعيل » ، أي مبتدأة بحرف « ى » ، أي على نحو ما كان يدونه اليونان أو السريان[٣] .

ويرى هذا المستشرق أيضاً أن العرب القدماء لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ابراهيم ، ثم تعلموا ذلك في أيامهم المتأخرة بعد اتصالهم بيهود الحجاز ، فلما تعلموا ذلك صاغوا الكلمة بالقالب الذي صاغوا به كلتي « إسماعيل » و « إسرائيل » وما شابه ذلك[٤] . وعلى كل ، فإن هذا هو رأي مستشرق وهو رأي يحتاج إلى دليل .

وبما دامت معرفتنا بالأساطير العربية القديمة وبديانة العرب وأخبارها لا تكاد تكون شيئاً ، فإننا لا نستطيع أن نبحث في هذا الباب بحثاً صحيحاً . والمصادر العربية الكتابية لا تشير على كل حال بأية إشارة إلى اطلاع العرب على جداول الأنساب اليهودية ، بل يظهر منها أن القبائل العربية كانت تنتسب حينما تنتسب إلى آلهتها المحلية ، فقد كان لكل قبيلة صنم أو أصنام

(١) مرجليوث Margoliouth p, 12

(٢) Hastings. Dictionary of the bible p,22

(٣) Margoliouth p, 12

(٤) نفس المصدر .

تنتسب إليه أو إليها ، وقد كانت هـذه الأصنام هى رابطة تلك القبائل ، وكانت تحتمى بتلك الأصنام ، كما تدل على ذلك عبارات مثل « عم صدوق » أو « عم نكرح » وما شابه ذلك[١] .

وإذا ما تقوت القبيلة وازداد نفوذها ، تقوى صنمها طبعاً ، وكثر أتباعه ومعظموه ، فتندمج القبائل المتحالفة بها ، وتنتمى إليها وتنتسب إلى ذلك الصنم ، وتصبح وكأنها من نفس تلك القبيلة[٢] . وهذا النوع من النسب الذى يكثر وجوده فى مملكة المعينيين والسبئيين لا يشابه جدول الأنساب عند اليهود[٣] .

وقد حاول المستشرق ماركليوث البحث عن الوطن الأصلى لليهود ، ذلك الوطن الذى أهملته الكتب اليهودية تماماً ولم تتعرض له ألبتة . وقد قارن بين أسماء الآلهة عند اليمانيين وطريقة التفكير الدينى والمعتقدات وأسماء الأشخاص عند عرب الجنوب وبينها عند اليهود ، فتوصل إلى رأى هو أن الوطن الأصلى لليهود لم يكن أرض فلسطين أبداً ، بل قد تكون أرض اليمن ، وهى أرض الهجرات السامية ، ذلك الوطن الذى ارتحل عنه هذا الشعب[٤] .

على كل ، فقد هاجر اليهود إلى أرض فلسطين ، وصاروا يحاربون الأمارات والمشيخات مدة طويلة . وقد تألف من هذه الأمارات حلف قوى لطرد العبرانيين أمثال : الكنعانيين والعموديين والحيثيين والفلسطينيين الذين كانت لهم حكومة متحالفة تشمل خمس مدن أو أمارات صغيرة ، هى غزة وأشدود وعسقلان « اشقلون » وجت « معناها المعصرة » وعقرون[٥] .

أضف إلى كل ذلك الأمارات الأخرى أمثال إمارة العموتيين وإمارة بنى عمون[٦] وإمارة موآب[٧] وأدوم التى تقع فى جنوب البحر الميت على تخوم موآب فى مرتفع من الأرض يطلق عليه اسم جبل سعير . وقد عارضت كل هذه الأمارات الاسرائيلين وقطعت عليهم الطريق ، وكبدوهم خسائر كثيرة لم تنقطع طول مدة بقاء اليهود فى فلسطين .

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر راجع Rhodokankis stud.
(٣) Margoliouth p, 12 (٤) Margoliouth p, 13
(٥) قاموس الكتاب المقدس ج ٢ ص ١٨٢ hastings p ,674
(٦) قاموس الكتاب المقدس ج ٢ ص ١١٦ .
(٧) قاموس الكتاب المقدس ج ٢ ص ٣٨٥ .

دخل اليهود فلسطين ومعهم فكرتهم الدينية ، إلا أن هذه الفكرة لم تكن تتجاوز تلك العقيدة التى نقرأها فى التوراة والتى تتمثل فى سفر يشوع على الأخص . وهى أن إله إسرائيل قد وعد شعب إسرائيل بأرض إسرائيل ، فعلى هذا الشعب أن يخلص تلك الأرض من أيدى الشعوب الساكنة فيها ، وعلى يشوع أن يتشجع ويحارب ليخلص تلك الأرض وليسيطر عليها من نهر الفرات الكبير إلى البحر[١] . فلما دخل الاسرائيليون تلك الأراضى وجدوا شعوباً كانت مقيمة فيها خضعت لهم ولكنها لم تخرج عن أرض فلسطين بل ظلت جذورها باقية إلى زمن الفتح الاسلامى[٢] . ويرى بعض الاختصاصيين فى التاريخ العبرى أن الكنعانيين من شعوب فلسطين القديمة على الأخص لم يرحلوا عن فلسطين بل ظلوا فيها إلى الفتح الاسلامى . ولما أصبحت فلسطين أرضاً إسلامية دخل هؤلاء فى الديانة الاسلامية وظل بعضهم على دين النصارى حتى هذا اليوم . ويستطيع الانسان على ما يقوله هؤلاء الثقات فى التاريخ العبرى أمثال الأستاذ روبنسون والسير فرازر أن يلاحظ ملامحهم فى سكان فلسطين الذين يتكلمون اللغة العربية ، إلا أن كثيراً منهم ينحدر من ذلك الجيل الكنعانى القديم صاحب فلسطين قبل هجرة العبرانيين إلى الأرض الموعودة بمئات وألوف السنين[٣] . وهم يمثلون اليوم أرضهم خير تمثيل[٤] .

وهنالك فرق عظيم بين هذه الهجرة العبرية التى كانت تحمل فكرة دينية وبين تلك الهجرة الاسلامية التى كانت تحفزها فكرة دينية أيضاً . فالمسلمون الذين غادروا الحجاز لنشر كلمة التوحيد لم يكتفوا بالحجاز أو فلسطين أو سوريا والعراق وبشبه الجزيرة كلها ، بل أرادوا فوق ذلك نشر دين الله فى جميع أنحاء الأرض فى كل بقعة يقيم فيها إنسان . ففكرتهم إذاً فكرة إنسانية عالمية تستوى عندها جميع الأقوام والجنسيات فى الحقوق والقانون . أما هجرة العبرانيين فقد كانت موضعية تريد شعباً واحداً من بين سائر الشعوب .

جواد علي

(١) راجع سفر يشوع أصحاح ١ آية ١ وما بعد .
(٢) Th. Robinson a history of Israel. Jeffries p, 5
(٣) James Frazer jeffries p 5 falk lore in the old testament
(٤) Jeffries p, 5